

موسى (ع) . . دروس وعبر



موسى (ع)، كليم الرحمن، وهو نبيٌّ من الأنبياء أولي العزم (عليهم السلام)، وقد ورد في نصوص القرآن الكريم أكثر من خطاب لموسى (ع)، وجاء بلسانه ولسان مَنْ يدعوهم ويحاجهم أكثر من حوار قرآني، وفي كلِّ حوار توجد الدروس والعبر التي يحتاج المؤمنون والدعاة والمصلحون إليها، وإلى ما ترشد إليه. وإذا كانت دعوة الأنبياء (عليهم السلام) تستهدف، بدايةً، المشركين والكفار كي تنقلهم إلى العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد، وتستهدف الظالمين والمفسدين لتأخذ على يدهم، وتوقف ظلمهم وإفسادهم وتنقذ المجتمع منهم. هذا ما كان مع موسى (ع) باتجاه فرعون الذي ادّعى الألوهية، والذي علا في الأرض، ومارس كلَّ أنواع الظلم والإفساد.

النص الحواري في القرآن الكريم: (وَإِذْ زَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ).

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْظِلُّ لِي لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَيَّ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ).

(قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبْنَا بآيَاتِنَا إِلَى رَبِّكَ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأَوْتَيْنَا فِرْعَوْنَ فِقْهًا وَإِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ).

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَيْدًا * فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْنَا فَعَلَاتِكَ السَّتِي فَعَلَاتٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْكُفْرِينَ).

(قَالَ فَعَلَاتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ).

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ).

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مٌؤَقِنِينَ).

(قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ أُلا تَسْتَمِعُونَ).

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ).

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ).

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ).

(قَالَ لئن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ).

(قَالَ أَوْلَوْ جئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ).

(قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءٌ لِلنَّاطِرِينَ).

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوَّلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ).

(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تُوْكَ بِكُلِّ سَّحَابٍ عَالِيمٍ * فَجَمَعَ السَّحَابَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ).

(وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْزَلْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّآ نُنَازِلُ السَّحَابَ إِنَّا كُنَّا لَهُمْ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَابُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنُنَازِلُكَ الْجُرَّاءَ إِنَّا كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ).

(قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ).

(قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْزَلْتُمْ مُلَاقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَدْحَنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحَابَ سَاجِدِينَ).

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ).

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَدِيلَ أَنْ أَدْنِ لَكُمْ إِنَّ زَيْهَ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفِ وَأَصْلَابِكُمْ أَجْمَعِينَ).

(قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَهِي رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوْسَلَ الْعُؤْمِنِينَ) (الشعراء / 51-10).

هذا الحوار القرآني في سورة الشعراء هو واحد من كثير من الآيات الكريمة التي نزلت وحياً بشأن موسى (ع)، ورحلته الطويلة، من الولادة إلى النشأة والبلوغ، فالخروج إلى بني مدين وزواجه من ابنة شعيب (ع)، والعودة إلى مصر بعد الاصطفاء الإلهي له نبياً من أولي العزم، وقد جاءه أمر الله تعالى بأن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى هجر عقائده الفاسدة ولينتقل إلى التسليم لله تعالى والتزام عقيدة التوحيد.

لقد كان فرعون طاغية ويدعي الألوهية، وكان عصره مشهوراً بوجود السحر وكثرة السحرة، فجعل □ تعالى معجزة موسى (ع) في عصا جلبها معه من عند شعيب (ع)، و□ في خلقه شؤون.

جمع فرعون السحرة من كل الأرجاء، واستعدوا للحظة الحاسمة. "فلما اجتمع السحرة والناس جاء موسى متكئاً على عصاه، ومعه أخوه هارون حتى أتيا المجتمع، وفرعون في مجلسه مع أشرف قومه.. فتناجى السحرة فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر... فقالت السحرة: لنأتينك اليوم بسحر لم تر مثله، وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون. وكانوا قد جاءوا بالعصي والحبال يحملها ستون بعيراً، فلما أبوا إلا إصراراً على السحر؛ قالوا لموسى: إما إن تُلقي، وإما أن نكون نحن الملقين؛ قال لهم موسى: بل ألقوا أنتم حبالكم وعصيكم، فألقوا فإذا حيّات كأمنال الحبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً تَسعى".

أمام هذا الواقع أبلغ □ تعالى نبيه موسى (ع) بأن يلقي عصاه التي ستتحول إلى ثعبان ليس كمثله ثعبان. "فاستعرضت ما ألفت السحرة من حبالهم وعصيهم، وهي تخيل في أعين الناس وعين فرعون أنزها تسعى، فجعلت تلقفها وتبلعها واحداً واحداً حتى لم يَرَ في الوادي لا قليلاً ولا كثيراً مما ألقوا، وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين، فتزاحموا وتضاغطوا... وانهزم فرعون فيمن انهزم متخوّفاً مرعوباً... فلما انهزم الناس وعابن السحرة ما عابنوا، قالوا لبعضهم: لو كان ساحراً ما غلبنا، ولا خفي علينا أمره، ولو كان ساحراً فأين حبالنا وعصينا؟... وهم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان □ تعالى".

تنقل الروايات أن رئيس السحرة كان أعمى، ولما أخبره السحرة بما جرى أمام أعينهم، قال: هذا ليس بسحر، فخرّ ساجداً وتبعه السحرة.

تعود المتابع للحوارات القرآنية التي جاءت بلسان الأنبياء مع أقوامهم، أن تبدأ بالدعوة إلى عقيدة التوحيد، وإلى عبادة □ الواحد، لكن الخطاب الإلهي لموسى (ع) كان أن يتوجه إلى القوم الظالمين. والشرك في حقيقته ظلم كبير للمشرك نفسه، ولكل من تبعه، والدليل قول □ تعالى الذي جاء بلسان لقمان في وعظه وتوجيهه لابنه، والآية: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/ 13).

هؤلاء الظالمون هم فرعون ومَن تبعه، وفرعون، المعاصر لموسى (ع)، كان طاغية، وكان يدعي الألوهية - والعباد با □ تعالى - لكن موسى خاف أن يكذب القوم دعوته، وأن يرفضوا الاستجابة له، وحين ذلك قد ينفعل، ويضيق صدره بهم، وعند ذلك يعجز اللسان عن طرح الأمور بالشكل السليم والمناسب، ولكي يستطيع أداء مهمته الدعوية الرسالة دعا □ تعالى أن يؤازره أخوه هارون، فقد قيل: إن هارون كان ذا قدرة على التحمل، ولا ينفعل بشكل سريع. وهذا المطلب ورد في موقع آخر من النص القرآني وقول □ تعالى: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) (طه/ 32-29).

وكل شخص محتاج في أعماله ودعوته للمؤازرين، وبلسان موسى (ع): اشدد به أزري، لكن □ تعالى أمر موسى وهارون بأن يباشرا الدعوة، و□ تعالى ناصرهم وناصر المؤمنين جميعاً، وإذا خاف من ظلم فرعون وعدوانه فعليهما أن يعلما بأن □ تعالى معهما ومع كل مبلغ لرسالات □ تعالى: (إِزْنًا مَعَكُمْ مُسْتَمْعُونَ).

وعندما ذهب موسى (ع) إلى فرعون "كان موسى مبعوثاً إلى فرعون في أمرين: أحدهما أن يرسل بني إسرائيل، ويزيل عنهم ذلك العبودية والغلبة، والثاني أن يؤمن ويهتدي... وقول فرعون لموسى: ألم نربك؟ هو على جهة المن عليه، والاحتقار؛ أي: ربيناك صغيراً ولم نقتلك في جملة مَن قتلنا، ولبثت فينا سنين، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟".

ثم يُذكر فرعون موسى (ع) بقتل القبطي، وهو في ذلك يحاول الاعتراض على الدور الرسالي لموسى مرة بسبب هذا القتل، وأخري باحتجابه أن موسى معلوم عنده منذ طفولته، فكيف يدعو إلى غير ما عليه فرعون وقومه؟ وقوله: (وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (الشعراء/ 19)؛ أي: وإنك يا موسى قد جددت فضلنا عليك، وحقاننا لك، وسكوتنا عن قتل القبطي، وكل هذه ذرائع لا تقوم حجة أمام الدعوة إلى العقيدة السليمة وضرورة هجر الشرك وادعاء الألوهية من قبل فرعون.

كان رد موسى (ع) بأن قتل القبطي كان بسبب عدم علمي بأن وكزة ستقتله وقد فررت خوفاً من قتلكم لي، لكن كل ذلك لا يلغي ما تقوم به يا فرعون من الإدلال لقومي، وهذا لا يسمح لك أن تستعبد بني

إسرائيل وتأخذهم بالسخرة عبداً لك.

أمام هذا الرد والبيان اضطر فرعون إلى الذهاب بالحوار باتجاه القول الفصل، فجاء النص القرآني في هذا الحوار بلسانه: (وَمَا رَبُّكَ إِلَّا الْعَالَمِينَ)؟ بعد سؤال فرعون "أتى موسى (ع) بالصفات التي تبين للسامع أنَّهُ لا مشاركة لفرعون فيها، وهي ربوبية السماوات والأرض، وهذه المجادلة من فرعون تدلُّ على أن موسى (ع) دعاه إلى التوحيد، فقال فرعون عن ذلك: (أَلَا تَسْتَمِعُونَ)؟ على وجه الإغراء والتعجب من شناعة المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك.. فزاد موسى في البيان بقوله: (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ) فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: (إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ).

إن فرعون كان يدعي الألوهية، ولذلك كان متوقعاً أن يرفض عقيدة التوحيد التي جاءه بها موسى، والتي ستقضي على سلطانه وعلى خضوع الناس له. وجواب موسى: (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ) كان للبيان بأنَّ تعالى رب العالمين، والربُّ هو الخالق والمتصرف بالعباد، وهو سبحانه مالك العباد جميعاً، ولم يأتِ النص بلسان موسى: "إلهكم"؛ لأنَّ الإله هو المعبود، وقوم فرعون يعبدون فرعون ولا يعبدون تعالى. وعلماء العقيدة يقولون عبارة تفيد في هذا المقام هي: "إلى تعالى رب العالمين وإله المؤمنين".

لقد عجز فرعون عن الجواب فكان ردُّه انفعالياً، وقد سبقه أو تبعه ضالون ومعاندون إليه، إنَّه الحكم الانفعالي القائل عن نبي بأنَّه مجنون.

لما وجد موسى أن فرعون قد أعياه البيان عن الرد، عمل على فتح آفاق الذهن والتفكير عند قوم فرعون طمعاً باهتداء بعضهم إذا حرك فيهم الفكر والتفكير الفكرة السليمة، وكان ذلك من لفت أذهانهم إلى السماوات والأراضين وحركة الأرض حول الشمس وما يترتب على ذلك من شروق وغروب، ويحتاج الفهم السليم هنا إلى إعمال العقل - أكرم ما خلق إلى تعالى - ولهذا كان في نص الحوار القرآني مع قوم فرعون: (إِنَّ كُذِّبْتُمْ تَعْقِلُونَ) (آل عمران/ 118).

احتدمت ألفاظ الحوار، ومستوى الخطاب فيه، فلجأ فرعون إلى سلطته بدل الحجة والبرهان، فهدد موسى بالسجن، فكان رد موسى هو البرهان على نبوته من خلال المعجزة التي أيدها إلى تعالى بها وهي عصاه التي تنوعت مجالات استخدامها، ولأنَّ العصر كان قد عرف السحر والسحرة فقد استخدم موسى العصا لإفحام فرعون وسحرته، فألقاها فإذا العصا تتحول إلى ثعبان لم يرَ فرعون وقومه مثيلاً له من ذي قبل.

كان فرعون طاغية يخيف الناس بالسجن لكن موسى الذي طمأنه إلى تعالى بالنصرة والتأييد لم يؤثر وعيد فرعون عليه، بل واجهه بأن يظهر له ما يؤيد نبوته. دفع الفضول فرعون إلى القول في هذا الحوار القرآني، وطلب من موسى أن يأتي ببيانه، فألقى العصا التي بيده ثم "نزع يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كأنها قطعة من الشمس، فلما رأى فرعون ذلك هاله، ولم يكن له فيه مدفع غير أنَّهُ فرغ إلى رميه بالسحر، وطمع لعلو علم السحر في ذلك الوقت وكثرته أن يكون فيه سبب لمقاومة موسى، فأوهم قومه وأتباعه أن موسى (ع) ساحر، ثم استشارهم في أمره وأغراهم به... فأشاروا عليه بتأخير أمره وأمر أخيه، وجمع السحرة لمقاومته. وروي أنَّهُم أشاروا بسجنه، وهو كان الإرجاء عندهم، والإرجاء التأخير، لم يشيروا بقتله لأنَّ حجته نيِّرة وضاللتهم في ربوبية فرعون مبيِّنة فخشوا الفتنة، وطمعوا أن يغلب حجة تقنع القوم".

قام فرعون بمحاولته الأخيرة، فجمع السحرة، ووعدهم بإغداق العطاء عليهم بعد أن تنجح حيلتهم وسحرهم في مواجهة العصا المعجزة التي مع موسى (ع). أمرهم فرعون بإلقاء عصيهم وظهرت كأنها أفاعٍ تتحرك، ولما ألقى موسى عصاه التفتت ما ألقوا من عصيِّ وحبال وأفنتها في جوفها ولم تبق لها أثراً، فظهر كذب السحرة، وفضحت العصا المعجزة إفك السحرة، وأمام هذا البيان تحركت الفطرة في السحرة واهتدوا، فكان في الحوار القرآني قوله تعالى بلسانهم: (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف/ 121).

إنَّ مسار الحوار القرآني بين موسى (ع) وفرعون يبيِّن أمراً مهماً للدعاة هو أنَّ واجب الداعية الإمام يعلموم العصر، وعلوم القوم الذين يستهدفهم بدعوتهم، وأن يحيط علماً بصناعاتهم وتقاليدهم لأنَّ ذلك يمكِّنه من مقارعة الحجة بالحجة، ومن تقديم البرهان المنطلق من رحاب الإيمان، والذي سيكون أقوى مما يتقنونه، فيكون ذلك سبيل هداية لهم، كما حصل مع سحرة فرعون الذين فادتهم الفطرة، بعد تهافت حيلتهم، إلى الإيمان والعقيدة السليمة. وأمام الحجة البالغة لم يأبه السحرة بموقف فرعون ولا بوعيده، وهذا درس آخر للدعاة والمصلحين بأنَّ عليهم ألا يسلموا بالأمر الواقع متذرعين بأنَّ القوم يخضعون لطاغية أو يصنِّمون شخصاً ولا انفكاك لهم من ذلك، فحكاية سحرة فرعون في هذا الحوار القرآني

من القصص القرآني الذي يفيد لطيفة مهمة لكلّ مصلح وداعية بأنّ واجبه أن يناظر ويجادل ويحاور محاولاً الإقناع والاستقطاب، وبعد ذلك يكون الرهان على فطر الناس وعقولهم.

لقد نفّذ فرعون وعيده وشرع في قتل السحرة انتقاماً لأنّهم فارقوا الضلال، واهتدوا إلى العقيدة السليمة حين استجابوا لما دعاهم إليه موسى (ع)، وقد ثبتوا على الدين الحقّ، وجاء جوابهم بشكل ثابت لا تردّد فيه (وَإِنَّا إِلَٰهِي رَبِّ إِنَّا لَمُنذِقَٰلِدُّونَ) (الزخرف/ 14). لقد أكرمهم الله تعالى بالشهادة، حيث وفدوا إلى المجلس سحرة مشركين يؤلّهون فرعون، وانتهوا موحدّين شهداء منعّمين عند ربّ العالمين سبحانه، وكلّ رجائهم أن يقبل الله تعالى إيمانهم، وأن يغفر لهم ما تقدم من ذنبهم، والمعلوم أنّ القاعدة هي: "الإسلام يجب ما قبله".

إنّ هذا الحوار القرآني الذي جاء بلسان موسى وفرعون وقومه يبيّن أهمية الثبات على العقيدة والمبدأ أيّاً تكن الصعوبات، ويبيّن أهمية الإحاطة من قِبَل المصلح والداعية بالعلوم والصناعات وتقنيات العصر كي ينجح في دعوته، وأخيراً يبيّن هذا الحوار كيف أنّ المؤمن الحقّ لا يثنيه عن موقفه تهديد ولا وعيد، بل يكون عنده استعداد للتضحية مهما غلا الثمن ما دام ذلك في مرضاة الله تعالى، ومن أجل مواجهة الضلال، وفي سبيل مقاومة الظلم والعدوان.

المصدر: كتاب الحوار في الإسلام (آدابه وقواعده)